المؤمنين من فوق سبع سموات فهو الذي ألَّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانًا فمقتضى الأخوة الإيمانية أن تكف عن أخيك أذىٰ الآخرين فضلاً عن أذاك، فلا تسئ به الظن أو تتجسس عليه أو تغتابه بل تكف عنه ضيعته وتحفظه من ورائه وتحسن إليه ما استطعت إلىٰ ذلك سبيلاً.

فلا ينبغي للمؤمن إذن أن ينهش عرض أخيه في غيابه ولا ينبغي أن ينزل إلىٰ هذا الدرك السافل فلا يفعل هذا إلا الحيوان الذي يأكل جيفة حيوان آخر ويتلذذ بذلك ويستمتع به ولذلك يقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]. ويقول أيضًا في وصف الغافلين: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

* * *

## تكريم الإنسان بعد الممات

فالمؤمن ينبغي أن يربأ بنفسه عن هذا المستوىٰ الهابط وأن يعصمه إيمانه من هذا التدنِّي والسفول ولذلك نهانا الإسلام عن أكل الميتة ونهانا عن التمثيل بمن مات في المعركة وهو ما يعرف بالمُثلة كقطع أنف الميت وأذنيه وبقر بطنه وتشويه صورته كما فعل الكفار مع حمزة رضي الله عنه بعد قتله وقد جاء النهي للمسلمين عن الانتقام والمعاملة بالمثل وأمرهم بالصبر فقال عز وجل: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

ولذا نهىٰ الرسول ﷺ عن المثلة في الحرب فهي ليست ببطولة أو شجاعة بل هي خسة ولؤم وحقارة وجبن ودناءة أن نفعل بهم ذلك بعد موتهم وتركهم لدنيانا. ولقد كرم الله الإنسان في حياته وبعد مماته، قال عز وجل في تكريمه في الدنيا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ

كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠] فدوابُّ الأرض تحمله، والكون مسخر لمنفعته وخدمته وبعد مماته فهو يغسل ويكفن ويدفن في قبره، وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: ٢١]. فهو لا يُترك كسائر الحيوانات على ظهر الأرض جيفة للجوارح والوحوش.

وانظر إلى قول أبي العلاء:

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب ... فأين القبور من عهد عاد؟

خفف الوطء ما أظن أديم الـ ... أرض إلا من هذه الأجساد

سِرْ إن استطعتَ في الهواء رويدًا ... لا اختيالاً على رفاتِ العبادِ

وقبيح بنا وإن قدُم العهد ... هوان الآباء والأجداد

وقد نهانا أيضًا الرسول ﷺ عن سب الأموات وأمرنا أن نذكر محاسنهم وأن نسكت عن عيوبهم ومساوئهم ففي حديث النسائي: «لا تذكروا هلكاكم إلا بخير» أي: موتاكم، فقد أفضوا إلى ما قدموا كما في حديث البخاري فإن سب الأموات يؤذي ذويهم من الأحياء ولا يصل إلى الأموات أويضرهم، فلا يضير الشاة سلخها بعد موتها.

وهل من البطولة أن نسبَّ الأموات أو أن نمثل بهم بعد موتهم وقد كان الواحد من هؤلاء المتطاولين يرتعد ويخشى مجرد النظر إليهم أو الكلام في حقهم بأدنى مكروه؟!

يقول ابن حمديس الصقلي:

لو شققت تلك القبور لأنهضت ... إليهم من الأجداث أُسدًا عوابسا

ولكن رأيت الغاب إن غاب ليثُه ... تبختر في أرجائه الذئبُ مائسا

كما أن كلاً منا مُعرَّض للموت لا محالة فهل يرضى أن يُفْعل به ذلك أو أن يمثل به أو يُساء إليه بعد مماته؟!

ولذا ختم الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي: ختمها بالأمر بالخوف من الله في السر والعلن وذلك بأن نحسن إلى إخواننا في حضورهم وفي غيابهم، وفي حياتهم وبعد مماتهم، فمن يتقي الله فإنه لا يقول إلا حسنًا ولا يفعل إلا خيرًا كالنحلة تراها تُخرج من بطنها شهدًا.

## توزيع دقيق وتنسيق بديع

والآن لنر كيف وزعت كلمة (الفسوق) مع نداءات الإيمان في سورة «الحجرات»، فقد تعلق **أول نداء لله لعباده المؤمنين** في السورة بطاعة الله ورسوله ﷺ.

**وكذلك النداء الثاني**: فهذا هو الأصل الأصيل الذي ترتكز عليه حياة المسلم الملتزم وعليه تنبني سائر التكاليف الأخرى والخاصة بعلاقته مع غيره ومع إخوانه من المسلمين.

**ولكن النداء الثالث**: للمؤمنين في السورة لم يخصص للعلاقة بين المؤمنين بعضهم البعض بل لكيفية التعامل مع من يأتينا من خارج الصف المسلم وهو الفاسق الذي ينبغي أن نحذر شره ونتقي خطره ولذلك قدمه الله عز وجل على الكلام عن العلاقة بين المؤمنين بعضهم البعض والتي تناولها النداءان الأخيران للسورة وأيضًا ليلفت انتباهنا لخطر الفاسق فإنه رتب ما يقع من قتال بين المؤمنين على سماع خبر الفاسق وقبوله دون تبيُّن أو تثبت.

**وفي النداء الرابع**: حذرنا من السخرية واللمز والتنابز بالألقاب وعدَّها من الفسوق الذي يتنافى مع الإيمان، فهما نقيضان لا يجتمعان ولذا قال الله عز وجل: ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١١] ولذلك طالبنا بعد ذلك بالتوبة مما تلبست به النفوس من أدران الفسوق فقال عز وجل: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١] فمن ألمَّ بشيء من هذه الأمور وهي السخرية

واللمز والتنابز فقد اتصف بصفة من صفات أهل الفسوق وذلك بعد أن خلع عنه رداء الإيمان الذي كان يحفظه ويحميه ولذا عليه أن يعود إلى حظيرة الإيمان وذلك بالتوبة إلى الله عز وجل.

وقد استثار الله حمية المؤمن ونخوته الإيمانية إذ كيف يرضى بأن يلقب باسم الفاسق بعد أن تحلى باسم المؤمن الذي آمن بربه عز وجل وبرسوله ﷺ فقال على طريقة الإلهاب والتهييج: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]، فالمؤمن لاينبغي أن يلتقي مع الفاسق في أي صفة من صفاته بل وينبغي له أن يحرص على التبرؤ والتنزه من أن يصيبه شيء من دنس تلك الصفات التي تخرجه من دائرة الإيمان وتلقي به في أتون الفسوق والعصيان ومن منا يحب ذلك؟ لا أحد من أهل الإيمان يحب ذلك ولا سيما أن الله قد حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكرَّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

وسارت الآية التي بعدها على هذا المنوال وأعطت لنا مثلاً لهذا الفسوق وهو ثلاثة أشياء أيضًا ولكنها تحدث في غياب المؤمن لا في وجوده كما في الآية التي قبلها وهذه الأشياء هي الظن السيئ والتجسس والغيبة ونفرنا منها وكرَّهها إلينا تطبيقًا لقوله عز وجل: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]. فقال عز وجل بعد أن ذكر النهي عن هذه الأشياء: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] فأعطانا مثلاً لهذا التكريه ليبين لنا كيف كره الله إلينا هذه الأمور التي تعد من الفسوق فقد شبه من يذكر أخاه بسوء في غيابه بمن يأكل لحم أخيه بعد مماته. كما أننا كما ذكرنا من قبل لا نستطيع أن نفصل بين الظن السيئ والتجسس والغيبة فهي أمور يأخذ بعضها برقاب بعض فسوء الظن يؤدي بصاحبه إلى التجسس الذي يفضي بدوره إلى الغيبة فالظن السيئ غيبة قلبية والتجسس غيبة عملية ثم تأتي بعد ذلك الغيبة اللسانية أو القولية فكلها يجمع بينها قاسم مشترك وهو إيذاء المؤمن وذلك بهتك حرمته بظهر الغيب فقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] ينسحب أيضًا على الظن السيئ والتجسس وليس على الغيبة فقط فلولا الظن السيئ والتجسس ما كانت هناك غيبة.

## الفواسق الست!

ونستطيع أن نضع الأمر على هذا النحو: الله كره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، والغيبة من الأمور التي كرهها الله لنا فإذن الغيبة من الفسوق وكذلك الظن السيئ والتجسس وبذلك انضم الظن السيئ والتجسس والغيبة إلى نظائرها في الفسوق وهي السخرية واللمز والتنابز بالألقاب والتي ذكرت في الآية السابقة فألحقت هذه بتلك وهؤلاء بهؤلاء بقاسم مشترك وهو الفسوق والذي يجمع بينهم مما يجعلنا نطلق عليهم الفواسق الست كالفواسق الخمس التي أمرنا بقتلها في الحل والحرم، فهؤلاء ينبغي أن نقتلهم في نفوسنا وأن نطهر منهم جميع جوارحنا وألسنتنا.

**وقد يسأل أحد فيقول:**

كيف حبب الله إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا؟ وكيف كره إلينا الكفر والفسوق والعصيان؟ وأين حدث هذا؟

**والجواب:** أن تحبيب الإيمان كان في غزوة الحديبية حيث انصاع الصحابة رضوان الله عليهم إلى الحق وامتثلوا أمر الرسول ﷺ فنحروا هديهم وحلقوا رءوسهم ورجعوا إلى المدينة والإيمان يرفرف على قلوبهم بعد أن حببه الله إليهم ولذلك ورد في حديث أحمد في «المسند»: «**لقد أنزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها**».

أما تكريه الكفر والفسوق والعصيان، فالصحابة كانوا على النقيض من كفار مكة الذين جعلوا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية واختاروا الكفر وساروا على دربه فلم يؤمنوا بما جاء به الرسول ﷺ بل عادوه وعاندوه وصدوا عن سبيله بينما المؤمنون آمنوا به وعزَّروه ونصروه ووقَّروه واتبعوا النور الذي أنزل معه.

ولكن الإسلام سينتشر وستفتح مكة وستقوم الدولة الإسلامية في أرجاء الأرض وسيندحر الكفر ولكن الفسق سيظل موجوداً في المجتمع الإسلامي فهناك ضعاف الإيمان وهناك من يصدر منه السخرية واللمز والتنابز أو يتلبس بسوء الظن والتجسس والغيبة ففي حديث مسلم: «**إن الشيطان يئس أن يُعبد في أرضكم بعد اليوم، ولكن رضي بالتحريش فيما بينكم**»، فما يحدث بين الناس من التحريش كأن يسخر بعضهم من بعض ويتراشقوا بالألفاظ ويغتاب بعضهم بعضًا، فللشيطان فيه دخل كبير، ولذلك وحتى نفوِّت عليه فرصة التحريش والوقيعة بيننا فقد أمرنا اللَّه عزَّ وجلَّ بأن نتحلَّى بفضيلة الصبر وكظم الغيظ والعفو وحُسن القول، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا**﴾ [الإسراء: ٥٣]. فكان لا بد من تبغيض هذه الأمور إلى النفوس حتى تظل في دائرة الفسوق وتظل مكروهة عند أصحاب النفوس المؤمنة والفطر السليمة.

وكما أن سوء الظن يفضي إلى التجسس الذي يفضي بدوره إلى اغتياب الناس، فكذلك السخرية ستفضي إلى اللمز، فالمسخور منه سيسخر ممن استهزأ به حتى يصل إلى مرحلة التنابز والتراشق بالألقاب.

* * *

## نوعان من الفسق مختلفان

ولكن الله عز وجل كما كرَّه إلينا الظن السيئ والتجسس والغيبة فإنه كره إلينا أيضًا السخرية واللمز والتنابز.

ولكن أسلوب التكريه اختلف نتيجة لاختلاف نوع الفسوق في كلتا الآيتين. فالفسوق في الآية الأولى أخف وأقل في الدرجة من الفسوق في الآية الثانية فهما وإن كانا نوعين فهما ليسا متشابهين بل بينهما اختلاف وفرق فالسخرية واللمز

والتنابز تحدث في وجود الشخص فهو حاضر يستطيع أن يدفع عن نفسه ماوقع عليها من الأذىٰ ويرد الصاع صاعين. فالمسخور منه يرد علىٰ الساخر كما في قوله عز وجل: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] فهو لن يسكت إن كان قادراً علىٰ ذلك.

وكذلك الأمر في اللمز والتنابز ففي اللمز قال عز وجل: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] وقال: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ فأنت إذا عِبتَ أخاك ولمزته تسببت في لمز نفسك لأنه لن يسكت عنك بل سيقوم بلمزك أيضًا.

وأيضًا في التنابز جاء بصيغة التفاعل وهي تقتضي المشاركة من طرفين، فهذا يلقِّب هذا بلقب يكرهه والآخر يعامله بالمثل. ولذلك لم يكن الإنكار أو التنفير بنفس الدرجة أو الحدة التي كان عليها في النهي عن الظن السيئ والتجسس والغيبة لأن الشخص في هذه الأحوال يكون غائبًا، أي ليس حاضراً يستطيع أن ينتصر لنفسه أو يثأر لها بل هو غافل عما يقال عنه أولا يدري بما يناله من ضرر يصيب عرضه وسمعته بين الناس كما قال حسان بن ثابت في وصف عائشة وما أصابها في حادث الإفك:

حصانٌ رزانٌ ما تزنُّ بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

أي عفيفة عاقلة غير متهمة لا تغتاب الناس لأنها لو اغتابتهم لشبعت من لحومهم ولذا قال: (غرثى: أي جائعة)، والغوافل هن الغافلات عمَّا رُمِينَ به من الفاحشة ولذلك كان التنفير والنهي بالنسبة لسوء الظن والتجسس والغيبة أشد وأقوىٰ حيث كان التنفير والترهيب واستثارة النخوة يتجه إلىٰ أصحاب النفوس الأبية والفطرة النقية وكان التكريه ينصب علىٰ الجانب العاطفي ويخاطب القلب أكثر من مخاطبته لجانب العقل.

* * *

## بين القلب والعقل

فجانب التكريه العقلي أظهر في آية السخرية بينما جانب التنفير النفسي أشد في آية الغيبة، فصورة الإنسان وهو يأكل من لحم الأخ الميت صورة تشمئز منها الطباع وتقشعر منها الأبدان فمن منا يحب ذلك أو يقبله أو يرضى به أو حتى يتصور أنه يمكن أن يقع. فمقتضى الأخوة الإيمانية أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك. ولذلك فهذا التصوير كفيل بأن يكون رادعًا لمن تُسَوِّل له نفسه اقتراف هذه الآثام التي قبحها الشرع وعافها الطبع ورفضها العقل ونفر منها القلب.

أما في تبغيض السخرية واللمز والتنابز فكان الجانب العقلي هو الأظهر فلم يكن هناك اعتماد على تشبيه أو استعارة أو تصوير لأنها أمور حق الدفاع فيها متاح ومكفول، والمعاملة فيها بالمثل، ففيها المواجهة وفيها الندية قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١] فهما فريقان يتراشقان بالألفاظ ويسب كل منهما الآخر ولذلك ذكر في كل حالة التعليل الذي يجعل الإنسان يفكر ويتردد قبل أن يُقدم على السخرية أو الاستهزاء بأخيه ففي حالة السخرية قال في التعليل: ﴿عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ وقال أيضًا في النساء: ﴿عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ والخيرية المشار إليها في الآية مرتين إنما هي عند الله فانظر إلى أسلوب الإقناع كأنه يقول: إياك أن تسخر من هذا الشخص فقد يكون عند الله أفضل أو خيرًا منك مكانة فتسخر منه فتتعرض لغضب الله عز وجل فقد عاديت له وليًّا، وإياك أن تغترَّ بالمظهر فرُبَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبر الله قسمه فقد يكون هذا المسخور منه خيرًا من ملء الأرض من مثل الساخر فكأن الله يقول لنا: «فكِّروا قبل أن تسخروا» وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكذلك في اللمز قال: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا تكن سببًا في إلحاق الأذى بنفسك. كما أوضحنا منذ قليل. وكذلك في التنابز جعله الله بصيغة التفاعل

أي أن الطرف الآخر لن يسكت عن إساءتك بل سيعاملك بالمثل، فقد أعطاه الله الحق في القصاص قال عز وجل: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال أيضًا: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] وإن رغَّبه في العفو بعد ذلك ولكن من يضمن لك أن من أسأت إليه سيعفو عنك فقد ينتقم لنفسه بل قد يوقع عليك الضرر بأشد مما أوقعته عليه، فكف لسانك عنه حتى يكف لسانه عنك وإياك أن تخاطر أو تجازف فالسلامة لا يعدلها شيء.

ولذلك كله لم يأت مع السخرية واللمز والتنابز بهذا التشبيه المنفر وبهذه الصورة القبيحة والمقززة التي ادَّخرها لاستخدامها مع الظن السيئ ومع التجسس والغيبة لأن تصور الضرر الذي سيلحق بالساخر أو الأذى الذي سيصيبه من جرَّاء سخريته أو لمزه أو تنابزه ماثل أمام عينه وقائم في نفسه، فهو على يقين من أن الطرف الآخر لن يتأخر في رد الإساءة بمثلها أو أشد. فإن لم يزجره إيمانه فقد يزجره الخوف من كلمة تفحمه أو تسقط مهابته بينما قد لا يسعفه لسانه في الرد على الطرف الآخر، فينقلب السحر على الساحر ويبهت الساخر والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

أما في حالة الظن السيئ والتجسس والغيبة فمن يفعل ذلك آمن من أن يرد عليه الطرف الآخر وذلك بسبب غيابه عن المجلس فهو كالميت الذي لا يخيف أحداً وإن كان في حياته يُعمل له ألف حساب ولذلك فالمغتاب يتكلم في عرض أخيه بما يشاء دون رادع أو زاجر لا من داخل نفسه ولا ممن حوله ممن يتابعه ويوافقه على فسقه فهو في هذه اللحظة قد قل رصيده من الإيمان أو انعدم فقد رضي لنفسه أن يهبط إلى درك الفسوق وأن ينسلخ من لباس التقوى الذي يستتر ويتزين به أهل الإيمان.

وأيضًا هو ليس له زاجر من خارج نفسه ولا سيما إذا كان الشخص الذي يجالسه على شاكلته من الفسوق والخروج عن مقتضى الإيمان الذي يعصم صاحبه ويمنعه عن الخوض في أعراض الناس فالمؤمن لا يمكن أن يتكلم في عرض أخيه في غيابه بل يقوم بالرد بشدة على من يفعل ذلك ويزجره، ولا يخشى في الله لومة لائم.

## آية مرجعية

وفي الآية السابعة من سورة الحجرات جاء الله عز وجل بلفظ : «حبب» مع الإيمان وجاء بما يقابله وهو «كره» مع الكفر والفسوق والعصيان وفي الآية رقم ١١ جاء بالنهي عن السخرية واللمز والتنابز ووصف ذلك بالفسوق ولم يأت بلفظ : «كره» واكتفىٰ بوصفها بالفسوق ليدل علىٰ أن هذه أمور يكرهها الله ولذا كرِهها لنا وكرّهنا فيها وجاء في الآية التي بعدها وهي رقم ١٢ بلفظ : «فكرهتموه» وجاء بلفظ «أيحب» الذي استعمل في الإنكار لأنها أمور لا تُحب بل هي مكروهة، كرهها الله إلينا وذلك لنستدل بلفظ : «فكرهتموه» علىٰ أنها من الفسوق الذي كرهه الله إلينا وهكذا نجد أنه في كل من الآيتين ١١ ، ١٢ جاء بلفظ في آية وحذفه من الآية الأخرىٰ، وحذف لفظًا من آية وجاء به في الآية الأخرىٰ بينما جاء باللفظين معًا في الآية رقم ٧ من السورة لتكون لنا المرجع الذي تقاس عليه وبه الأمور .

* * *

## موانع متعددة

ومع أن الجانب العقلي في الآية ١١ أوضحُ من الجانب العاطفي من الآية ١٢ إلا أن الآية رقم ١١ لم تخلُ من أسلوب الإلهاب والتهييج كما هو مبين في قوله عز وجل : ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾ فمن من المؤمنين يقبل الفسوق بعد الإيمان أو يرتضي ذلك لنفسه . وهكذا اشتملت الآية ١١ علىٰ كل الموانع التي تصد من تسوّل له نفسه أن يسخر من إخوانه فهناك الحاجز المادي وهو وجود الشخص الذي يستطيع أن يرد بالمثل وينتقم لنفسه، وهناك الحاجز الشرعي فقد نهىٰ الشرع عن السخرية، وهناك الحاجز العقلي فالعاقل لا يتسبب في إلحاق الضرر بنفسه، وهناك

الحاجز العاطفي أو النفسي أو القلبي فالمؤمن يأنف ويربأ بنفسه أن يجعلها تتصف بصفات الفسوق والعصيان بعد أن بلغ هذا الأفق الوضاء من الإيمان.

ونفس تلك الحواجز نجدها في الآية ١٢ فهناك الحاجز المادي وهو وجود جثة أخيه بعد موته فهي تذكره بحقوق أخيه عليه وتجعله يعف عن نهشها وهناك الحاجز الشرعي أو الديني المتمثل في النهي عن الظن السيئ والتجسس والغيبة وهناك الحاجز العقلي المتمثل في التعليل في قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وهناك الحاجز العاطفي أو النفسي وذلك بتعليق المحبة على شيء بلغ الغاية في الكراهية والقبح فمن يتجاوز تلك الحواجز ويتعداها فقد انعدم رصيده من الإيمان ونزل إلى حضيض الفسوق والعصيان وأصبح من أهل البغي والعدوان فهي أمور مكروهة شرعًا وطبعًا.

وهذا يذكرنا بالحواجز التي ذكرناها من قبل في الآيتين ٤، ٥ وهما قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤، ٥] فهناك الحاجز المادي المتمثل في وجود البنيان وهو الحجرات الشريفة، وهناك الحاجز العقلي فمقتضى العقل عدم إزعاج الناس والمناداة عليهم في وقت راحتهم وألا نقتحم عليهم خلوتهم. وهناك الحاجز الخُلُقي المتمثل في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فقد كان خلق الصبر ينبغي أن يكون رادعًا لهم عن التجاوز والعدوان وأيضًا كان الحاجز الشرعي فقد نهى الله عن ذلك في قوله عز وجل: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] بينما جاءت الإشادة بمن يلتزم بهذا الخلق الكريم وذلك في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

فالمؤمن له واعظ من داخله وزاجر من خارجه يجعله يقف عند حدود الله التي رسمها الله عز وجل لحفظ حقوق العباد وللحفاظ على مالَهم من حرمات ينبغي أن

ترعىٰ وتصان. وتستطيع أن ترىٰ بنفسك الحواجز المتعددة والمنفرة في قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] وكذلك الآية التي بعدها والتي تعتبر امتداداً لها وهي الآية رقم ٧ فهي آية محورية في سورة الحجرات وهكذا نرىٰ لفظ الحجرات وهو يلقي بظلاله وآثاره المباركة علىٰ السورة كلها ويصبغ آيات السورة بصبغته الموحية مما يجعلنا ندرك بعضاً من الأسرار التي تُعيننا علىٰ فهم السبب وراء تسمية هذه السورة بهذا الاسم الكريم الذي يعد مفتاحاً لفهم معاني تلك السورة وفك بعض رموزها والوقوف علىٰ قبس من أنوارها وأن نضع أيدينا علىٰ شيء من كنوزها وأن نتوصل إلىٰ الوحدة الموضوعية أوالمعنىٰ العام الذي يشد بعض آيات السورة إلىٰ بعضها البعض في تناسق عجيب وأسلوب يأسر القلوب ويسحر النفوس.

فكلمة «الحجرات» كلمة محورية لها إيحاءاتها وإشعاعاتها وإيماءاتها وأنوارها وآثارها وثمارها اليانعة وظلالها الوارفة مما يجعلها المحور الذي ترتكز عليه آيات السورة والمدار الذي تدور حوله ألفاظها كلها فترىٰ حضورها القوي في كل آياتها المباركة بل في كل لفظ من ألفاظها الطيبة وكلماتها الكريمة، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك أثناء تفسيرنا لهذه السورة الشريفة.

* * *

## الفتح والحجرات سورتان متكاملتان

ولكن قد يتساءل البعض: لماذا لم يأت الله بمثل لتحبيب الإيمان كما ضرب لنا مثلاً في تكريه الفسوق والعصيان كما ذكر ذلك في قوله: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: ١٢] وقد ذكرنا منذ قليل أن تحبيب الإيمان قد ورد ذكره في سورة «الفتح» التي جاءت قبل سورة «الحجرات» في ترتيب المصحف

والتي لا يمكن فهم سورة «الحجرات» إلا بعد فهم سورة «الفتح» أولاً.

وكان ذلك في قوله عز وجل في شأن صلح الحديبية: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦] ولقد توبعت هذه الفكرة وأشير إلى هذا التحبيب في قوله عز وجل من سورة «الحجرات»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣] فكان هذا الامتحان وإلزام القلوب للتقوى في صلح الحديبية الذي تكلمت عنه سورة «الفتح» بالتفصيل.

كما أنه ذكر أيضًا صورة لهذا التثبيت في سورة «الفتح» وهي صورة الصحابة في قوله في آخر آية في سورة «الفتح»: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] فهو مثل للقوة والنماء وتثبيت الإيمان وتقويته في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

* * *

## سورة الحجرات قامت بمهمتها خير قيام

وهناك سبب آخر له وجاهته وهو أن سورة «الحجرات» كما تبين من اسمها وكما أوضحت من قبل تعالج الجانب الوقائي الذي يحفظ للمجتمع الإسلامي قوته وعناصر بقائه فبعد أن بلغ أوجه وذروته في أواخر سورة «الفتح» ووصل إلى مرحلة النضج والرشد بعد أن شب عن الطوق فكان الفتح ـ فتح مكة ـ وانتشار الإسلام في أرجاء الأرض فلابد من صيانة هذه المكتسبات وهو ما تكفلت به سورة

«الحجرات». ومن هنا غلب على سورة «الحجرات» جانب الحجر والمنع والوقاية والحفظ والصيانة فكان جانب النهي فيها أظهر وأقوى من جانب الأمر وهذا يتضح من النداءات الخمسة في هذه السورة الكريمة.

**فأولها بدأ بقوله:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

**وثانيها:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

**وثالثها:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.

**ورابعها:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾.

**وخامسها:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾

وهكذا نرى النداءات الخمسة للمؤمنين الذين حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، نراها لا تتعلق بجانب البناء فقد أتم الله النعمة وأكمل لهم دينهم ورضيه لهم وارتفع البناء شامخًا ورسخت أصوله وعلت راياته وكانت الفتوحات الإسلامية التي أشارت إليها سورة «الفتح» والتي يفهم ذلك من اسمها ولم يبق إلا المحافظة على هذا البنيان أن تتصدع أركانه.

ومن هنا جاءت هذه النداءات الخمسة في سورة «الحجرات» لتؤدي هذا الدور الخطير ولتقوم بهذه المهمة العظيمة على خير وجه وبأبلغ حجة وأروع بيان وجاء التشبيه في النداء الأخير بتكريه الظن السيئ والتجسس والغيبة لتكون تتويجًا وتعزيزًا لهذا الاتجاه الذي نحت إليه السورة وتميزت به دون سواها من السور الكريمة فالتجسس والغيبة والتنابز بالألقاب أمور لم يرد فيها النهي إلا في تلك السورة الكريمة فليس المهم أن نبني فقط بل أن نحفظ هذا البناء من عوامل الهدم والانهيار فنحن نكسب الحسنات ولكن هناك من يفقد حسناته بسبب اغتيابه لأعراض الناس كما وضح ذلك حديث المفلس الذي رواه الإمام مسلم رحمه الله.

ومن ثم تناولت سورة «الحجرات» هذا الجانب الهام وهو جانب الصيانة والحفظ والوقاية للمحافظة على سلامة هذا المجتمع وإبقاء عناصر القوة فيه ولئلا يتصدع بنيانه أو تتهدم لبناته وتنفرط حباته فنكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا، وقد تصدت سورة «الحجرات» لهذا الجانب الخطير وقامت بأدائه على نحو منقطع النظير.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

[الحجرات: ١٣].

## الإخاء الإنساني

بعد أن حذرنا الله من أخلاق تتنافى مع مبدأ الإخاء الإسلامي فإنه يذكرنا بمبدأ الإخاء الإنساني في هذه الآية التي تقرر وحدة أصل البشرية، فالناس صنفان: أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق وقوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ أي: من آدم وحواء ثم قال: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ﴾ وهو كقوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١] ثم ذكر العلة من هذا الخلق على هذا النحو: ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ أي: لتتعاونوا لا ليسخر بعضكم من بعض أو لتتحاسدوا وتتقاتلوا أو ليتعالى بعضكم على بعض.

فالغرض من هذا البث والتفرق واختلاف الناس إلى شعوب وقبائل هو: التعارف والتكامل فالله قد وزع الأرزاق في الأرض ولم يخص بها شعبًا دون آخر فالشمس تشرق على الكل والله يرزق الكافر والمؤمن على حد سواء فالله خلقنا للتعارف لا للتفاخر بالآباء والأجداد والتفاضل بالأحساب والأنساب فجميع الناس في شرف النسب سواء فأصل خلقتهم من طين وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية وبطاعة الله وتقواه وبالأخلاق الحميدة التي اكتسبوها بحسن معاملة الناس.

فاختلاف الألسنة والألوان والطباع والاستعدادات إنما هو خلاف تنوُّع وثراء لا يقتضي النزاع والشقاق بل التعاون والتآلف للنهوض بالتكاليف والتبعات والوفاء

بالحاجات وعمارة الأرض على منهج السماء فليس للجنس أو اللون أو اللغة أو الوطن من حساب أو تقدير في ميزان الله وإنما هو ميزان واحد تتحدد به القيم ويعرف به الفضل ويكتسب به الشرف عند الله عز وجل وهو ميزان التقوى أي: اتقاء النواهي وترك المحظورات التي اشتملت عليها آيات سورة «الحجرات» والمتعلقة بكف الأذى عن الناس وماعدا ذلك فهي قيم زائفة لا يعرفها الإسلام فهي قيم مصطنعة تتعارض مع وحدة الأصل البشري فالناس سواسية كأسنان المشط ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

* * *

## عقيدة التوحيد

وقد رسخ الإسلام قاعدة التوحيد في القلوب والتي ترفض أي نوع من التمييز المادي بين الناس كما في حديث البيهقي: «**إن ربكم واحد وإن أباكم واحد وكلكم من تراب**» وحديث الترمذي أن النبي ﷺ قال في خطبته عند فتح مكة: «**يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بَرٌّ تقي كريم على الله ورجل فاجر شقي هين على الله، الناس من آدم وآدم من تراب**» ثم قرأ قوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣]».

وكرر نفس الوصية في خطبته الجامعة في حجة الوداع فقال كما في «مسند أحمد»: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد وأباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى** ثم قرأ هذه الآية من سورة «الحجرات» وقال: **ألا هل بلغت؟** فقالوا: بلى فقال: **فليبلغ الشاهد منكم الغائب**».

فالله لن يسألنا يوم القيامة عن أحسابنا وأنسابنا فليس هذا مجال الحساب بل سيسألنا عما حصلناه من التقوىٰ أو ما فرطنا فيه منها: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فتوحيد الله يتنافىٰ مع هذه القيم الجاهلية: كتقديس الآباء والأرض والقوم والثروة والقوة والتقاليد والعنصر واللون فهي قيم متخلفة ونظرة ضيقة تحجب الإنسان عن معرفة الخالق وتجعله يحتقر من هو دونه من الخلائق وتجعله بعيداً عن التعاون والتعامل مع الآخرين وتؤدي إلىٰ إشاعة روح التباغض والأثرة والتعالي والأنانية والعصبية مما يؤجج نار الحروب بين الشعوب كما قال الشاعر معبراً عن هذا التعصب البغيض.

**بنونا بنو آبائنا، وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد**

بينما النظرة الدينية أرحب وأوسع وأشمل كما أشرنا إلىٰ ذلك حينما تكلمنا عن الأخوة الإيمانية عند تفسير قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠] ويروىٰ أن الحاجب الذي كان يقف علىٰ باب الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما دخل عليه وقال: رجل علىٰ الباب يزعم أنه أخوك فقال: أدخله فلما دخل لم يعرفه معاوية فقال له: أي إخوتي أنت؟ فقال: من آدم وحواء، فقال معاوية رضي الله عنه: رحم مقطوعة والله لأكونن أول من وصلها وأمر له بعطاء.

فالاختلاف أو التنوع لم يكن عبثًا بل لحكمة التكامل والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ وللتعاون والتآلف وإنما التنافس والتسابق يكونان بالعمل الصالح وفعل الخيرات وإعمار الأرض بالحق والعدل يقول عز وجل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

فكلمة التقوىٰ هي صبغة المجتمع الإيماني والأمة الربانية فخوف الله عز وجل لا الخوف من البشر هو الذي يقي الناس من الشرور والفساد والظلم والعدوان، فالتقوىٰ هي الأساس الذي ينبغي أن تؤسس عليه كل العلاقات بين البشر سواء في

البيت أو المدرسة أو العمل وكذلك ينبغي أن تكون هي المقياس الذي يعرف به أقدار الناس ومنازلهم فهي بحق ينبغي أن تكون المحور الذي تدور عليه حركة المجتمع فهي عماد تماسكه ومبعث قوته بينما العصبيات الجاهلية هي صبغة سائر المجتمعات غير الإيمانية.

لقد استطاع الإسلام صهر المجتمع الجاهلي في بوتقة التوحيد وأن يخلص الناس من روح العصبية وأن يتجاوز بهم حواجز الدم واللون والأرض وأن يوحد طاقاتهم المبعثرة تحت راية التوحيد.

فليس القصد أو الغرض من اختلاف الناس في الأنساب والألوان والبلدان أن يتفرقوا شيعًا وأحزابًا أو أن يتناحروا ويتفاخروا بشعوبهم وأجناسهم، إنما القصد أن يتعاطفوا ويتعاونوا على ما فيه خيرهم وفلاحهم فهذه الآية دعوة إلى أمة إنسانية واحدة ترفرف عليها رايات العدل والمحبة والرخاء وقد تحقق هذا في واقع الناس حينما حكم الإسلام وقبل أن تعرف الدنيا مبادئ حقوق الإنسان ولقد وقَّعت أمريكا وإسرائيل على وثيقة حقوق الإنسان ومع ذلك فإنهما يرتكبان في فلسطين والعراق جريمة إبادة الجنس البشري ومذابح يندى لها الجبين وتقشعر منها الأبدان.

* * *

## قيم الجاهلية تعيش بيننا

وبهذه الآية يثبت الله السكينة في قلوب المؤمنين لئلا يحزنوا إذا رأوا تكالب الناس على الدنيا وتنافسهم على ما فيها من مال وجاه وسلطان وتنكرهم لأهل التقوى والصلاح فلم يكن الغرض من الخلق والجعل على هذه الكيفية من الاختلاف هو التفاخر بالأنساب وبأمثال البياض والسواد مما يؤدي إلى الاستعباد والاستعلاء وفساد الحياة.

فالإنسان يريد الشرف والكرامة في هذه الدنيا ولذلك فهو يسعى لتحصيل ما

يتميز به عن غيره ويختص به دون أقرانه. وعامة الناس لتعلقهم بالدنيا يرون الشرف والكرامة في اكتساب أسباب الحياة المادية من مال وحسب ونسب وجاه فيبذلون جهدهم في طلب واقتناء تلك الأشياء ليتفاخروا ويتباهوا بها وليستعلوا بها على غيرهم من الناس وهي مزايا وهمية وخادعة لا تجلب وحدها لهم الشرف والكرامة والعزة بل توقعهم في تيه الشقاء والهلاك لأنها تصرفهم عن تزكية نفوسهم فالشرف والكرامة الحقيقية هو ما يؤدي إلى السعادة السرمدية عند رب العزة كما في قوله عز من قائل: ﴿**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾ [القلم: ٣٤] وتلك المنزلة لا تنال إلا بالتقوى ولذلك يقول عز وجل: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ١٩٧]. فالتقوى غاية لا تزاحم فيها ولا تدافع نعب منها عبًّا فهي نعم الزاد.

ولذلك فقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣] في ختام الآية أي سيجازيهم على تقواهم خير الجزاء يوم القيامة فلا يبتئس المؤمن أو يحزن صاحب التقوى بل يفخر بتقواه ويعتز بإيمانه ويستعلي بما عند الله وليفرح بفضل الله فالله العليم هو الذي اختار لهم هذه الكرامة الحقيقية التي تؤهلهم للسعادة الدنيوية والأخروية بخلاف ما اختار الناس لأنفسهم من كرامة فإنها وهمية وزائفة فهي جميعها من زينة الدنيا الزائلة قال عز وجل: ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال أيضًا: ﴿**إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**﴾ [غافر: ٣٩] ولذلك قال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الحشر: ١٨] فعلى العباد أن يختاروا لأنفسهم ما اختاره لهم ربهم العليم الخبير.

فالله هو الذي خلق الأجناس كلها وأولى كل جنس خصائص معينة وإنما ذلك لحفظ نظام الحياة الاجتماعية للناس لأن هذه الاختلافات مدعاة لمعرفة الناس بعضهم لبعض، فهي كالاختلافات والفروق الفردية بين الناس تدعو للتكامل والتعاون والائتلاف.

وكل إنسان يرغب بفطرته أن يكون موجوداً ذا قيمة واعتبار ولذا فهو يسعى لاكتساب القيم التي يعتقد أنها تكفل له تحقيق ذاته وتحصيل رغائبه إلا إن هذه القيم تختلف باختلاف الثقافات السائدة في كل بلد والتي يتأثر الناس بها وربما كانت قيماً دنيوية زائلة وباطلة: كالافتخار بالأحساب والأنساب والمال والسلطان.

* * *

## النسب المعتبر يوم القيامة

والإسلام لا يقر هذه القيم لأنها زائفة وعارضة وتؤدي إلى الشقاق والتسلط والعدوان ولا يعترف الإسلام إلا بالقيم الأصيلة النابعة من النفس الطيبة كطهارة القلب ونقاء الفطرة وبذلك فقد حرر الإسلام الإنسان من أَسْر العِرْق والدم والقبيلة واللون والمال والمصالح المادية ودلَّه على معرفة نفسه ففي الحديث المتفق عليه: «**ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس**». ولذلك لما فتح الرسول ﷺ مكة اختار بلالاً وهو العبد الحبشي الأسود كما كان يراه كفار قريش وأمره أن يصعد ليؤذن من فوق الكعبة بينما أشراف مكة الذين هم أهل الحرم واقفون ينظرون ويسمعون وكان ذلك تطبيقًا عمليًّا لهذه الآية الكريمة ولمبدأ: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي حديث الحاكم والطبراني: «**سلمان منَّا أهل البيت**» فسلمان الفارسي رضي اللَّه عنه نسبه الرسول ﷺ إلى نفسه وألحقه بأهل بيته بينما نهاه ربه عزَّ وجلَّ أن يستغفر للمشركين الذين ماتوا على الكفر ولو كانوا من ذوي قرباه. قال عزَّ وجلَّ: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ [التوبة: ١١٣].

ومع كل هذه المبادئ السامية فلا تزال رواسب تلك القيم الجاهلية تعشش في أعماق كثير من المسلمين فتجد فيهم من يعول على قيم الدم والنسب والأرض

ويقدمها على الأخوة الإسلامية والوحدة الدينية مع أن هذه الأنساب لا توجب كرمًا ولا تثبت شرفًا ولا تقتضي لصاحبها فضلاً، فإنما التفاضل الحق بالتقوى وفي حديث الطبراني والبيهقي: «**إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديًا ينادي: ألا إني جعلت نسبًا وجعلتم نسبًا فجعلت أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان ابن فلان خير من فلان ابن فلان، فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم**» وفي حديث أبي داود والترمذي: «**الناس من آدم وآدم من تراب، ولينتهين أقوام يفتخرون برجال إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونُن على الله أهون من الجعلان**» وهو حشرة من الحشرات.

فبالتقوى والأعمال الصالحة تزكو النفوس وتنال الدرجات العلى لا بالأحساب والأنساب فمن أراد الشرف فليلتمسه في تقوى الله والعمل الصالح.

ومن سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله فالله يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فالأكرم عندالله هو الأتقى فإن تفاخرتم فتفاخروا بالتقوى.

* * *

## التقوى والكفاءة بين الزوجين

والآية دليل للمالكية الذين لم يشترطوا في الكفاءة للزواج سوى الدين فقط فلا مانع عندهم من زواج الموالي بالعربية فقد تزوج سالم مولى أبي حذيفة هند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف وتزوج أسامة بن زيد من فاطمة بنت قيس القرشية وتزوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش.

فالكفاءة في الدين عندهم هي الأصل فلا تزوج مسلمة بكافر ولا عفيفة بفاجر فقد حرم القرآن على المسلمة نكاح الزاني ولم يعتبر في ذلك نسبًا ولا مالاً فيجوز للرجل الصالح الذي لا نسب له أن يتزوج المرأة النسيبة فإذا لم يتوفر شرط الاستقامة والدين عند الرجل فلا يكون كفؤًا للمرأة الصالحة ولها الحق في طلب فسخ العقد إذا كانت

بكراً وأجبرها أبوها على الزواج من فاسق.

واستدلوا بهذه الآية: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فالناس متساوون في الخلق وفي القيمة الإنسانية وأنه لا تفاضل إلا بالتقوى واستدلوا أيضاً بحديث الترمذي: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» وبحديث أحمد وغيره: «تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ونسبها ولدينها فاظفر بذات الدين» ولكن قال الجمهور: يراعى الحسب والمال عملاً بالتقاليد والأعراف ومراعاة لأسباب المعايش والحياة ولئلا يحدث خلاف أو شقاق. وتحقيقاً للغرض من الزواج وهو الدوام والاستقرار.

* * *

## الافتخار بالأعمال لا بالأنساب

وهكذا يوجه الله الخطاب لعموم الناس ليبين لهم أنهم في النشأة يرجعون إلى أصل واحد وطينة واحدة فهم أصل واحد ثم تشعب ولذلك قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم قال: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ والتعارف ينبغي أن يكون قائمًا على مبدأ التعايش السلمي بين الأجناس وأن يكون التعامل بينهم على قدم المساواة وعلى مبدأ لا ضرر ولا ضرار فالتفاضل ينبغي ألا يرجعوا فيه إلى ماضيهم فهم فيه سواء فإذا افتخروا فليفتخروا بصالح الأعمال التي اكتسبوها وبشريف صفاتهم وأخلاقهم التي حصلوها وخير الأعمال ما قرب العبد من مولاه وما زكى قلبه وجعله محسناً للناس فماذا ينفع الإنسان إذا كان أصله من خير الناس وهو لا يكف عنهم شره وأذاه؟

فالنسب غير مكتسب ولا دخل للإنسان فيه إذ ليس للإنسان إلا ما سعى بينما التقوى هي الفضيلة التي تكتسب وتنال عن سعي واجتهاد وما كان هذا شأنه فهو الذي يكون عليه مدار الثواب والعقاب.

وقرئ (لتتعارفوا) بتاءين على الأصل فتزيد هذه القراءة مراد الله وضوحًا ولكن ادغمت إحدى التاءين من باب التخفيف وقرئ (لتعرفوا) بكسر الراء وقرئ أيضًا بفتح همزة (أنَّ) أي (لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم) فمعرفة الغاية التي من أجلها خلقنا الله لهو أمر مقصود ومراد ولذلك في الحديث المتفق عليه: «من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين» وأعلى أنواع المعرفة وأفضلها هي معرفة الله عز وجل.

والغاية من الخلق هي عبادة الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وكيف تتم العبادة دون علم ومعرفة وفقه وفهم؟ كما أن التعارف يؤدي إلى المحبة والتآلف بين العباد.

* * *

## الفرق بين الخلق والجعل

وهناك فرق بين الخلق والجعل كما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ [الحجرات: ١٣] «فالخلق» هو الإيجاد والإنشاء أي: الخلق يرجع إلى إيجاد الذات بينما يرجع «الجعل» إلى تنويع الصفات وإثراء الحياة وتيسير أمور المعاش ولرفع الحرج والمشقة و العنت والعسر عن الناس ولذلك فالخلق يستعمل فيما هو من جهة الأصول و«الجعل» فيما هو من باب الفروع كما في قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] وقوله أيضًا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الانعام: ١] وقوله عز من قائل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

«فالجعل» إضافة جديدة تدخل على أصل الشيء فهو من متعلقات الوجود وليس له وجود ذاتي ولا يقوم وحده فتوزع الناس إلى شعوب وقبائل ليس أمرًا ذاتيًّا تتغير به حقيقة الإنسانية في الناس فهم مهما اختلفوا شعوبًا وأوطانًا فهم إخوة قرابة وأنسابًا.

فالناس جميعًا من أب واحد وأم واحدة فكيف يسخر الأخ من أخيه من أمه وأبيه؟! فهل لو كانت هناك أسرة مكونة من الوالدين وبعض الأولاد فهل يحق لولد منهم أن يفتخر على بقية إخوته من ناحية الحسب والنسب ؟ كلا ولكن إنما يتفاوت الأولاد ويتفاضل الأبناء ويتفاخر الإخوة والأخوات بما بذل كل واحد منهم من جهد وسعي في تزكية نفسه وتكميلها والارتقاء بأخلاقه وتحسين مركزه الاجتماعي بين الناس وبمدى نفعه وقدرته على إسعاد الناس وأن يمنع عنهم شره وأذاه وما أصدق الشاعر إذ يقول زاجرًا عن التفاخر بالأنساب والأحساب :

**لا يقولن امرؤ أصلي فما أصله مسك وأصل الناس طين**

* * *

## الغرض من الاختلاف التعاون بين الناس

فقوله عز وجل : ﴿**لِتَعَارَفُوا**﴾ لبيان العلة الغائية والحكمة المترتبة على تقسيم الخلائق وجعلهم شعوبًا وقبائل وذلك ليس للتناكر والتباغض بل للتعارف والتآلف وإن كثيرًا من الأحكام الشرعية إنما تدعو إلى حكمة التعارف كصلاة الجمعة وصلاة الجماعة وصلاة العيدين ومناسك الحج ففي حديث الترمذي : «**عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة**» وفي حديث أحمد : «**المؤمن يألف ويؤلف وخير الناس أنفعهم للناس**» وفي حديث أحمد والترمذي : «**من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثي جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم**» .

فكيف عكس الناس الأمر وجعلوا مراد الله من التنوع والاختلاف سبيلاً للتقاطع والتدابر بل وللتصارع والتفاضل فصدق فيهم قوله عز وجل : ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ**﴾ [إبراهيم : ٢٨] .

فالله وزَّع الأقوات وفاوت بين الأرزاق ونوَّع في العطايا والمواهب حتى يحتاج الناس بعضهم إلى بعض وحتى تنشط التجارة ويحدث التبادل وانتقال المنافع والخيرات ويحصل التكامل والتعاون بين الناس: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢].

كما أنه ليس الغرض من الاختلاف بين الرجل والمرأة أن يكون هناك الاستعلاء أو السيطرة أو الإذلال فقوامة الرجل قوامة رحمة ومسئولية فالزوج والزوجة بينهما تعاون وتكافل وتراحم وبحيث لا يستغني أحدهماعن الآخر وحتى يعين كل منهما صاحبه على القيام بدوره في الحياة فهو ليس اختلاف تناقض وتضاد بل اختلاف تنوع وثراء وهو مثل اختلاف الليل والنهار لمصلحة العباد.

فهذه الآية العظيمة ترد الناس إلى سواء السبيل وتصحح لهم الكثير من المفاهيم التي دخلت عليهم من باب التفاوت المادي ومن جهة المظاهر الخارجية دون احتكام إلى ميزان التقوى الرباني فقد جعلوا الوسيلة هي الغاية فركزوا على «الجعل» أن جعلهم الله شعوبًا وقبائل وغفلوا عن الأصل وهو الخلق أي خلقهم من أصل واحد مما يقتضي التعاون والتعاضد.

وهكذا فتح الإسلام مجال الشرف أمام الناس كلهم فلا عنصرية أو عصبية فهذه نزعة شيطانية حينما قال إبليس عند ما أبى السجود لآدم: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [الأعراف: ١٢] فهي عنصرية بغيضة إذ نظر إلى العنصر وإلى المادة وإلى المظهر ولم ينظر إلى الجوهر والمخبر وكذلك سار اليهود على درب إبليس حينما زعموا أنهم شعب الله المختار فقالوا: ﴿**لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾ [آل عمران: ٧٥] وصدق الرسول ﷺ حينما وصف العصبية أي: تعصب الناس لا للحق ولكن لقِيَم القبيلة والأرض فقال كما روى مسلم في «صحيحه»: «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، دعوها فإنها منتنة**» وفي حديث أحمد في «مسنده»: «**من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزًّا وكِبرًا فهو عاشرهم في النار**».

والتقوىٰ مقياس رباني فالبشر لهم أهواء يتأثرون بها والأمور التي يفتخر بها الناس في الدنيا كثيرة وإن كان النسب يُعدُّ أعلاها من حيث إنه ثابت ومستقر وغير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك بخلاف غيره كالمال فيحصل للفقير مال فيبطل افتخار الغني عليه ولذا خص الله النسب بالذكر وأبطل اعتباره ليعلم من ذلك بطلان غيره من باب أولىٰ وذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وإذا كانت العقيدة الإسلامية تنشئ بين المسلمين رابطة خاصة هي رابطة الأخوة الإيمانية فهذه الآية إنما جاءت لتذكير المؤمنين وغير المؤمنين برابطة الدم التي تجمعهم فكل البشر الذين علىٰ الأرض يرجعون إلىٰ أصل واحد وإلىٰ نشأة مشتركة فالكل من سلالة آدم وحواء فاختلاف الأديان لا يسقط آدمية الإنسان وقد قام النبي ﷺ ـ كما في حديث البخاري ـ لجنازة يهودي ولما تعجب الناس قال: «أوليست نفسًا؟».

وهكذا نرىٰ رب الناس، يخاطب الناس مؤمنهم وكافرهم بَرَّهم وفاجرهم فإنهم تربطهم وحدة الأصل بما توجبه من خفض الجناح ولين الجانب وكف الأذىٰ وحسن التعامل فلا فخر أو استعلاء ولكن تعارف وإخاء وتنافس في فعل الخيرات وتسابق في عمل الصالحات وتفاخر بالتقوىٰ فالمتقون هم أكرم الناس عند الله وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

* * *

## التقوى معناها ومقتضاها

والتقوىٰ هي مراعاة حدود الله أمرًا ونهيًا وفعلاً وتركًا. فالتقوىٰ هي جعل النفس في وقاية مما تحذر وتخاف. وقوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحجرات: ١] وقوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [آل عمران: ١٣١] أي: اتقوا المعاصي والذنوب التي تغضب الله وتفضي بكم إلىٰ عذاب النار. والمتقي يترك الشبهات فضلاً عن الحرام ويترك ما لا بأس به

خشية الوقوع فيما فيه بأس فعلامة التقوىٰ الورع وعلامة الورع ترك واتقاء الشبهات وفي حديث البخاري: «**إني لأجد التمرة في الطريق ولولا أني أخشى أن تكون من الصدقة لأكلتها**».

فكمال التقوىٰ هو اجتناب الشبهات محافظة علىٰ طهارة القلب وخوفًا من الله عز وجل والتقوىٰ تستلزم صيانة الإنسان لحرمات الآخرين وفي حديث أحمد والترمذي: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس**» وقد مر بنا حديث المفلس حيث يظهر الإفلاس الحقيقي يوم القيامة فقد دخل هذا المفلس النار ليس لأنه ما صلىٰ ولا صام ولكن بسبب إيذائه الناس ولذلك ليست العبادة فقط في الصلاة والصيام ولكن في الكف عن محارم الناس.

وللتقوىٰ منزلة عظيمة في القرآن فهي وصية الله للأولين والآخرين كما في قوله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ**﴾ [النساء: ١٣١].

فما من نصيحة هي أصلح للعبد وأنفع له من التقوىٰ ولو كان هناك ما هو خير منها لوصَّىٰ اللهُ بها العبادَ وكذلك هي وصية النبي ﷺ لأمته ففي حديث أبي داود: «**أوصيكم بتقوى الله**».

وآخر آية نزلت من القرآن ثم انقطع بعدها الوحي اشتملت علىٰ الأمر بالتقوىٰ وهي قوله عز وجل: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٨١].

* * *

# التقوى خير زاد

والتقوىٰ هي أفضل زاد ينتفع به المرء في دنياه وأخراه ولذلك قال عز وجل: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

وفي حديث الترمذي: قال رجل: إني أريد سفراً فزودني فقال النبي ﷺ: «**زودك الله بالتقوى**». وفي حديث أحمد أنه قال له إني أريد سفراً فأوصني فقال: «**أوصيك بتقوى الله**» وكان إذا سافر النبي ﷺ قال كما في حديث مسلم: «**اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى**» وكانت وصيته لمعاذ بن جبل كما في حديث أحمد وأبي داود: «**اتق الله حيثما كنت**». وقد أمرنا الله بذلك في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢].

والتقوىٰ خير لباس قال عز وجل: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الاعراف: ٢٦]، وهي أيضاً خير أساس قال عز وجل: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨] وهي خير مقياس قال عز وجل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] وقوله أيضاً: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]، فعلىٰ قدر تقواك يكون عفوك وعدلك مع الناس. وهكذا رأينا كيف تكون التقوىٰ هي وصية الله لكل العباد وخير زاد وهي أجمل لباس وأفضل أساس وأدق مقياس وأضوأ نبراس كما أنها أيضاً هي أشرف الأنساب كما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

* * *

## من ثمرات التقوى

والتقوىٰ لها فوائد كثيرة فهي سبب المغفرة وتكفير السيئات قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩] كما أن هذه الآية دليل أيضًا علىٰ أن التقوىٰ نور يقذفه الله في قلوب المؤمنين يمكنهم من التمييز بين الحق والباطل. وانظر أيضًا إلىٰ هذه الآيات الثلاث من سورة الطلاق في فضل التقوىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] وقوله: ﴿مَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥] وانظر أيضًا إلىٰ قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨] كما أن التقوىٰ هي سبب قبول الأعمال كما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. كما أنها سبب في جلب الأرزاق وزيادة البركات كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف ٩٦] كما أن التقوىٰ هي سبب لحب الله للعبد وسبب لمعيته عز وجل كما في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦] وأيضًا فإن أهل التقوىٰ لهم العاقبة والولاية كما في قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩] وقوله عز وجل: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] وقوله أيضًا: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

والتقوىٰ أيضًا سبب للتمكين في الأرض كما حدث مع يوسف عليه السلام وذلك في قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] كما أن أثر التقوىٰ يمتد أيضًا إلىٰ الآخرة فهي سبب النجاة من النار كما في

قوله عز وجل: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١] وقوله أيضًا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

وهي أيضًا سبب في دخول الجنة والفوز بنعيمها المقيم كما في قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣] وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤] وقوله أيضًا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥] وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤] وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١] وقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] وغير ذلك من الآيات كثير وعندما تقرأ مثل هذه الآيات تشعر وكأن الجنة إنما هي وَقْف على المتقين فهنيئًا لهم كما قال أكرم الأكرمين: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

والتقوى هي التي تجعل المؤمن لا يظلم أحدًا أو يجور عليه ولذلك وردت كلمة التقوى كثيرًا ضمن آيات الطلاق في سورة «البقرة» وفي سورة «الطلاق» وجاءت أيضًا ضمن آيات تحريم الربا كما أن التقوى والخوف من الله هو ما يجعل المؤمن يفي بالعهود والمواثيق حتى مع أعدائه يقول عز وجل: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦] وقوله أيضًا: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] وقوله عز وجل في شأن الكافرين: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦].

وما أجمل قول علي في التقوى: (إن الخطايا خيل شُمس حمل عليها أهلها وخُلعت لُجُمها فتقحمت بهم في النار، وإن التقوى مطايا ذُلُل حُمل عليها أهلها وأُعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة) وقوله أيضًا: (اعتصموا بتقوى الله فإن لها حبلاً وثيقًا عروته، ومعقلاً منيعًا ذروته) ولما سئل عن معنى التقوى قال: (هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل والرضا بالقليل).

وكان الرسول ﷺ يقول في دعائه الوارد في «صحيح مسلم»: «**اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها**» ودعاؤه أيضًا عند مسلم: «**اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**». فقد ذهب أهل التقى بخير الدنيا والآخرة.

* * *

## الإعجاز في توزيع «التقوى» في سورة الحجرات

والآن وقبل أن نترك هذه الآية الكريمة فلنا وقفة مع قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ نتكلم من خلالها عن «التقوى» في سورة الحجرات وعن كيفية توزيعها توزيعًا دقيقًا على آيات السورة الكريمة فتوزيعها غاية في الإعجاز والدقة والإتقان.

فهي من الكلمات المحورية في السورة كما رأينا ذلك في كلمات مثل: الفسوق والأخوة وفي نداءات الله الخمسة لعباده المؤمنين ورأينا علاقة ذلك بكلمة «التقوى» وأيضًا رأينا ارتباطها بكلمات أخرى وردت في السورة مثل: «الحجرات» و«العقل» و«الصبر» و«الرشد» و«الصدق» و«الحكمة» فكلهم يربطهم أصل لغوي واحد كما بينا من قبل. وكذلك كلمة «الامتحان» وكلمة «العنت» فهما يدوران في نفس الفلك.

وجاءت كلمة «التقوى» بلفظ المصدر «التقوى» كما في قوله في سورة «الحجرات»: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى**﴾ وجاءت أيضًا بصيغة أفعل تفضيل في قوله: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ وقد جاءت بصيغة فعل الأمر: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ ثلاث مرات في هذه السورة الكريمة وجاء ذلك بتوزيع محكم على آيات السورة. فأول لقاء لنا مع «التقوى» في سورة «الحجرات» كان في أول آية منها فبعد النداء للمؤمنين في صدر

السورة بألا يقدموا بين يدي الله ورسوله أي بأن يقفوا عند حدود الله عز وجل ولا يتجاوزوها ناسب ذلك أن تُختم الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لأن تقوىٰ الله هي التي تُعين العبد علىٰ طاعة ربه عز وجل وعلىٰ امتثال أمره واجتناب نهيه، فتقوىٰ الله والخوف منه والعلم بمراقبة الله له وأنه عز وجل يسمع ويرىٰ هي التي تحمل العبد علىٰ طاعة ربه في السر والعلانية.

فعدم التقدُّم معناه الوقوف عند حدود الله وطاعته في كل ما أمر به أو نهىٰ عنه وتعني أيضًا عدم الاندفاع نحو المعاصي والذنوب، والتقوىٰ تُعَضِّد هذا المفهوم. فالتقوىٰ تلحظ فيها جانب الحذر والحيطة والحفظ والصيانة.

فالتقوىٰ اتقاء ووقاية واجتناب الذنوب صغيرها وكبيرها دقها وجلها ما ظهر منها وما بطن والخوف من الله في السر والعلن. فالتقدم اندفاع نحو المعاصي ومخاطرة غير مأمونة العواقب وَتَعدٍّ وتسيب وَجُرْأة وانفلات بينما التقوىٰ حذر وحيطة ووقوف عند حدود الله وهي بهذا المعنىٰ بمثابة صمام الأمن الذي يكبح جماح النفس ويحدُّ من اندفاعها ويجعلها تتردد وتفكر في العواقب. فالتقوىٰ علاج ناجع للتقدم والاندفاع والتجاوز فهي بمثابة اللجام أو الزمام للدابة المسرعة الذي يكبح من جماحها ويحد من اندفاعها.

* * *

## التقوى من أعمال القلوب

والتقوىٰ محلها القلب فهي من أعمال القلوب لا الجوارح وفي حديث مسلم أنه ﷺ أشار إلىٰ قلبه الشريف وقال: «التقوى ههنا».

ولذلك ختم الله الآية الأولىٰ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فالله يسمع ما يقولون ويعلم ما في القلوب وما خفي عن العيون فمع التقوىٰ يأتي دائمًا وصف الله عز وجل بالعلم كما في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]